أما زال هناك من يتحدث عن العصامية ؟ لا أما اسخف القول الذي يقال في غير محله .. إنه كالتينة التي تسقطها الريح على الارض ، غير ناضجة !!

ان حياتي سلسلة من الاخفاق .. وهأنذا امسك بيدي آخر حلقاتها وما زلت بعد شابا. ان تحت هذا الجلد الرقيق الاصفر، عظاما رخوة لم يهدّ منها شيء بقدر ما هدّ منها برد سني اليفاعة التي نشأتها تحت ظل سميك من الفقر والقهر والعذاب .

ما زلت اذكر كيف قضيت اشهر احد الاصياف بكاملها وانا اصيح من الصباح حتى المساء : عنب .. يا عنب ! كنت استيقظ مع الفجر حين كان أثرياء المدينة يعودون من دور اللهو، فأهرع الى الخان مع الهارعين وأقف لأزيد في ثمن « سحارة » العنب ذات المائة والعشرين كيلو.. وكنت اصغر من يقف في الحلقة .. لم يكن في وجهي شعرة ما . كانت الحلقة تضم ما تنافر من عبيد الرغيف.. بوجوههم المتعبة ، وايديهم المعروقة، ولحاهم الطويلة التي لم تمر عليها موسى الحلاق منذ العيد الماضي، وسراويلهم الكبيرة التي يتسع كل منها لجثة قتيل كاملة دون ان ينفذ منها قطرة دم واحدة !! وكنت غالباً ما اوفق الى الحصول على « سحارة » عنب ... فأعود بها الى الساحة الصغيرة التي تتوسط مفارق اربعة يؤدي كل منها الى حي شعبي من احياء مدينتنا العزيزة !

كان رغيف الخبز ما يزال مربوطاً الى بطني بحزم جلدي عريض انه قوام مأدبة الفطور الى ان يتجمع لديه بعض هرور العناقيد !

كان الناس يعجبون من هذا الصبي الذي لم يبلغ السادسة عشرة من العمر بعد ، وهو يبيع العنب ، شأنه في ذلك شأن الكبار من الرجال وكان اكثر عجبهم يتركز في هذا الوجه الذي لا تلوح عليه الا دلائل النعمة والترف.. ولم يكن الناس في ظنهم كاذبين .. ولكنها الايام التعيسة التي لحقت بعائلتنا .. عاد ابي من القرية وهو نصف رجل . لقد فقد يده ورجله نتيجة الشلل .. وليس لنا جدار قائم ، او غرس منتصب او زرع ينضج حبه في ايار.. فقد مر الصيف كله وانا ما زلت ابيع العنب وما كنت اتحرج من شيء ، تحرجي من مرور احد زملائي في المدرسة .. إذ كان هؤلاء الزملاء كثيراً ما يمرون وفي ايديهم السلال الكبيرة ليملأوها من السوق، وقد يمرون عليّ في بعض الاحيان لشراء ما يلزمهم من العنب ، وكذلك مرور هؤلاء الفلاحين الذين كنت اعرفهم ، وكانوا يعرفون ابي .. ابي الذي اشتغل ناظراً على غدة قرى مدة ربع قرن ، وعاد الينا مشلولاً .. مسكين انت يا ابي ، ولكنني مسكين اكثر منك !

كل همومي كانت تنسى وكذلك كل متاعبي ، حين اعود مساء الى البيت حاملاً «الفرش» وفيه هرور العنب ، فتتلقاني امي ببسمة عريضة عميقة ، ودمعة كانت تحاول جاهدة ان تخفيها عني . كان الهرور فاكهتنا المفضلة وكذلك مؤونتنا من الخل لعام بكامله . ومن ربحي اليومي الذي لم يكن ليتجاوز الثلاث الليرات، كنا ندخر ليرة في كل يوم.. من اجل شراء بزة جديدة لي ، فالبزة التي صنعتها لي امي عند جارنا الخياط من «الحرام» العتيق ، قد اشرفت على الهلاك بعد ان زاملتها ثلاث سنوات. فهذه الليرة هي زادي لغدي ، ثمناً لثيابي ولحذائي الاسود الذي واعدني الحذاء به في اوائل تشرين الاول ، وكذلك القسط المدرسي..هذا القسط اللعين.. يا إلهي أيطلب مني انا كذلك ان ادفع للدولة قسطاً من أجل العلم؟ انا الذي يجف حلقي في كل نهار اكثر من مائة مرة، من الصراخ عالياً : يا عنب ، يا عنب ؟ ! ولكن لا بأس ألم اصبح رجلاً ؟ ألم اصبح سيد بيته ؟ ألم اصبح بائع عنب ابيعه من الناس بثمن رخيص وبربح معتدل فازاحم جيراني الباعة ، اولئك القساة الذين ما كانوا يشفقون عليّ.. كان دأبهم مضادّتي ، ودأبهم مجاذبتي الزبائن..وكانوا كثيراً ما يغرون شرطي البلدية بي .. وبخاصة شرطي السير ، فكان ينتصب امامي كالمئذنة ، بسترته المكوية ووجهه الذي كان املس من كثرة ما تمر عليه موسى الحلاق حتى ليكاد الذباب ينزلق إذا حط عليه ، وحذائه اللماع ، إمعاناً في النظافة !

لم اكن لأحقد عليه لأنه يؤدي واجبه ، فالفساد إنما يأتي من أعلى، وما هؤلاء إلا مخالب قطط، وكذلك لم اكن لأحقد على جيراني الباعة لأنهم كبار ، ولهم عوائلهم ، ولديهم اولاد إذا جاعوا بكوا .. ولكن يا للمأساة .. كم أبدو إنساناً الى هذا الحد ؟! ألست انا كذلك رب عائلة ؟.. اب مشلول وأم

حزينة ؟ ألست انا كذلك اذا جعت بكيت ؟!

هذا يكفي لان يملأ عيوني بدموع حارة ، فيلتف المـــارة حولي يشخصون الي بأبصار وانيـة وافواه مفتحة — وقلوب موصدة دون كلمة الحق ثم لا يلبثون ان يمضوا ذاهبين .. ان الحياة في هذه السوق اشبه بالمسرح الكبير الذي اختلط فيـه النظارة بالاوركستر ووقف المايسترو يمسح بمنديـله الحريري ما علق بعصاه من غبار فوضى الالحان المشوشة ويتأمل بابتسام ذلـك الجنون البشري على مسرح اكبر .. قد لا تنظم آلاته يـده الرقيقة بعصاها الرشيقة بقدر ما تنظم فوضاها عصا اغلظ ويد لا تعرف الرحمة !!

ان انسَ لا انسَ ذلك اليوم القائظ من ايام تموز ، حـين مرت سيارة المستشار الاجنبي ، مسرعـة ، فصدمت «السحارة» التي كنت اقدمها نحو الطريق قليلًا لتجلب الانظار ، فوقفت السيـارة بغتة ، وامتد وجه محتقن بدماء الغضب من نافذتها ، وبدأت اذني تسمع الفاظاً غريبة ما فهمتها ولكنني كنت افهم منها الشتائم المقذعة اذ استعنت لترجمتها بتعابير وجهه الشيطاني. ووصلني — عدا الشتائم — كثير من البصاق غير المهـــذب وكأن للغة الصالونات الادبية شيطاناً معقولاً فافلت من عقاله ؟! انه احد المستعمرين الذين اذلوا وطني ويريد اليوم ان يذلني ايضاً ، فهو يريـد ان يبرهن للسيدة التي تجلس بجانبه ، قوته وجبروته وانه حقاً مستشار ذو شأن ، فلما امعن في ثورته خيل الي ان السيدة لفتت نظره الى انني صغير فمضى في سبيله .

ومنذ ذلك اليوم بدأت اخاف .. كان في رأسي الصغير اندفاع لا يحد ، ولكنه فتر قليلًا ، فقد تمادى علي شرطي السير ، وخاصة بعد ما شاهد عن بعد حـــادث المستشار ، وحماسته ، وخطبته وأثرها في نفوس الجمهور الذي تزاحم فوقي كرجل من الجراد .. ما لبث ان اتى على الميزان ، وبعض الاوزان الصغيرة ، وذهب ربح ذلك اليوم فداء لنزق المستشار العظيم !!

القلب الذي في صـدري قلب طفل ، فلم اكن لاستطيع نسيان ذلك بسرعة . ان المستعمرين قد يضربون فمن سيسألهم ؟! قد يقودونني الى السجن فمن هو الآمر في هذا البلد غيرهم ، وغير اذنابهم من بعدهم ؟! وقـــد يترجل في المرة الثانية من سيارته ليقلب لي السحارة ارضاً ، ويمر سيارته السعيدة فوقها ، فيشربها هي الاخرى خمرة لم تعبأ في الدنان بعد ؟! وهؤلاء الناس الذين كانوا يلتفـون حولي ، ما كانوا يفعلون شيئاً . . اللهم سوى تزويدي بنصائح ثمينة بعد ذهاب شرطي السير وامثال هـذا المستشار العظيم !

وفي الليل كنت اطمر رأسي في صدرأمي وأنشج .. وكنت في كل يوم اعيد عليها قصة المستشار .. وآخذ يدها لتمسح عن وجهي بصاق المستشار الذي كان ينبت في كل يوم خوفاً ومذلة .. وكانت هي الاخـرى تنشج وتسأل الله ان يجزي المستشار عني كل شر !!

اما ابي فانه كان ينظر الي نظرات خرساء .. دون ان يشجعني او يخوفني العاقبة .. كان يعلم جيداً انني المنقار الوحيد الذي يلتقطون بـــه الحب .. ويعلم ايضاً وايضاً انه وأمي لا يستطيعان ان يخطّا في لوحة القدر اي حرفٍ واحد زيادة على ما سطر لنا نحن الثلاثة ، فكانا يستسلمان لهذا القضاء الذي كنا نتسربله في كل يوم بلذة وغبطة قد تفوق لذة الجرح البليغ في لحظاته الاولى ان كان بسكين حادة !!

لم اذهب ذلـــك العام الى المدرسة ، لقد مرضت امي .. مرضت بسرعـــة فانهارت كشجرة نخرها السوس ، وسقطت طريحة الفراش بين يوم وليلة ، لم تتمارض كما يفعل اغنياء مدينتنا اذ يسقطون صرعى الخـوف من المرض قبل ان يعالجهم بمخالبه الحـــادة .

اسرعت الى الطبيب .. يا له من جائع الى المال .. لقـد كان ذا معدة بلا قعر ، انه يأخذ مني عن كل ابرة ثلاث ليرات .. وربما كانت مملوءة بالماء ، او بمنقوع الكينا !! لا ادري . هكذا فسر لي عـدم جدوى ابره جاري الخباز الذي ما فتىء يتحدث عن غش الاطباء لامثالنا المساكين !

بقيت ذلك العام بلا حذاء ، وضاع العربون لقاء استصناع هذا الحذاء الذي انتظرته ثلاثة شهور كاملة ، وكذلك لم ألبس البزة الجديدة التي حلمت بها — فعدت الى القديمة ذات الاصـل المعروف .. حرام عتيق وحيد دنياه — ذلك الذي صار بقدرة قـــادر وهمة جارنا الخياط بزة تفقأ الحصرم في عيون اولاد الذوات !! وكذلك لم اذهب الى المدرسة لان ما ادخرتـه من اجل القسط قد طار .. اي والله لقد طار بعشرة اجنحة . إن امي بمرضها استنفدت كل ما ادخرته . فهي لذلك تمانـع كل يوم في الذهاب الى الطبيب — لانها تعـــلم ان ما ادخرته يتبخر بسرعة ، ولكنني كنت اريدها ان تظل حية .. وكنت اعتقد انني اشتري لها عاجل دنياها بآجل دنياي . ويوم افتتاح

المدرسة بالذات لم اكن مع الذاهبين وان كنت كذلك لم أعد أبيع العنب فاوراق العنب قد يبست على اعوادها وكذلك العناقيد قد نفدت !

نظرت أمي وهي تتمثل الى الشفاء ، نظرة حزينة الى الفراش الذي كان يمنع عنها رطوبة الارض الوافدة مع كل شتاء .. وكأنها كانت تقول لي بعيونها :

— ألا نستطيع ان نبيع بعض صوفه يا امين .. بقدر ما يعادل قسط المدرسة ؟

وكأنها نسيت ان المدرسة لا تقبل طلاباً في ارجلهم احذية ريفية حمراء ، إنها تريدني ان انتعل حذاء مدنياً جديداً وان ارتدي بزة جديدة ، وان ادفع القسط وان اساهم في النشاط المدرسي ، وذلك كله ، لا يوفيه ما في الفراش من صوف حتى ولو قلنا لأبي المشلول :

— قم عن فراشك يا ابي لندفع بثمنه ضريبة العلم !

جارتنا ام خالد ما زلت اذكرها بالخير .. انها هي التي حدثت ابنها عني ، فدبّر لي عملاً كأجير عند احد باعة الغزل في السوق التي يعمل فيها .. كان معلمي الجديد ، شاباً في حدود الخامسة والعشرين .. ولكن كانت له اطماع خمسة وعشرين محتكراً !! كانت ايام الاسبوع الاول اياماً صعبة ، لانني اختلط بالتجار لأول مرة . وان كنت بعد لم افهم اطماعهم . كان منظر الوف الاوراق النقدية التي يعدها معلمي صباح كل يوم ، يثير في نفسي ، ما هجع من احلامي في ثمن الحذاء والبزة وبدل القسط .. وكنت اعتقد ان معلمي لا يستطيع ان يفهم انه يظلمني بهذا التحدي ويستفز مشاعري دون ان يدري قط !

وجد معلمي الجديد فيّ منفذاً للاستثمار ، فبدأ يحملني ربطات الغزل المباعة للتجار . فكنت احمل في اليوم ما ينوف عن المائة ربطة بالمجّان .. أليس يدفع لي في الاسبوع ثلاث ليرات ؟! اي والله ثلاث ليرات !. كنت اشعر ان ايام العزّ قد مضت مع موسم العنب ، كنت يومذاك اربح في اليوم الواحد مقدار ما اناله في الاسبوع بايامه الستة ، وكان ان اشتريت باجرة الاسبوع الاول حذاء عتيقاً ، وذلك حسب رغبة معلمي التي افضى لي بها وهو يناولني اجري الاسبوعي بقوله :

— ان « الصرماية » العتيقة التي تنتعلها ، ليس من اللائق ان تدخل المحل .. انني آمل ان اراك يوم السبت بدونها !

ما زال هذا الحذاء عندي الى اليوم .. كذكرى حية من ذكريات أيام شقية زالت .. ولكن ما زال إعصارها يهب عليّ فيسلبني اعز احلام الشباب !!

في كل يوم كنت اذهب ابان الظهر لأعود اليه بغدائه .. كنت اجلس امامه ، فاتناول غدائي وحدي خبزاً وزيتوناً ، او خبزاً وحمصاً وبصلاً بيروتياً ابيض . وكان يأكل امامي بشراهة ارزاً ولحماً وفواكه ، دون ان يدعوني لمشاركته طعامه ولو من باب المجاملة .. حتى ولو تبقى بعض الطعام. كان يجمع الاواني النحاسية ، بعضها الى بعض ، ويختم عليها بالكلاليب ويقول لي دون ان ينظر في وجهي :

— تستطيع ان تعيدها الى البيت لتنظفها الخادمة مع اواني المطبخ !!

انني احتقره لا لشيء ، الا لأنه يعاملني معاملة فظة .. انه يحملني ربطات الغزل ، كحمار الحمال ابي محمود ، دون ان يدفع لي ما كان يدفعه لأبي محمود ، ويرسلني الى البيت لجلب غدائه ، دون ان يدعوني لمشاركته ، وان كنت قد صمت بعد اليوم الاول ان امتنع عن اجابته ولو كنت سأموت جوعا !

في اكثر الاحيان كنت اسخر منه ومن امثاله في هذه الحياة ، ولكن دون ان يظهر صدى ذلك عبر الشفاه .. كانت السخرية تنتشر فيما بين الضلوع ، ولهذا السبب وحده ، بقي القلب سليما ، والرئتان كذلك ، وان كانت المعدة ما زالت تشكو قلة اسباب الرفاهية !

وما زلت الى اليوم اضحك من الذين يتكئون على الارائك ويحدثون الجيل الجديد عن العصاميين والعظاميين ..

ألا ما اسخف القول الذي يقال في غير محله .. انه كالتبنة التي تسقطها الريح على الارض ، غير ناضجة !

حلب — **علي بدور**

مجلة « القلم الجديد »

مجلة شهرية لخدمة الفكر العربي الحديث

صاحبها : عيسى الناعوري

عمان — المملكة الاردنية الهاشمية ص.ب ٣٥٢

يشترك في تحريرها طائفة من كبار ادباء العالم العربي والمهجر